

في عيد المعرى

للدكتور عبد الوهاب عزام

من جلال الذكر ، ومن الغتباط والانبهاج بالعود إلى المدينة
التي ما دخلتها ولا خرجت منها ولا غبت عنها إلا محبباً لها
مشتاقاً إليها معجباً بها مفكراً فيها آملاً لها كل خير ، داعياً لها
بما هي أهله من الأمن والرخاء والمجد والمظمة . المدينة التي
ما دخلتها ولا أوتت بها إلا منشراح الصدر ، قرير العين ، على
رغم الخطوب والكروب ، والتي قلت فيها وقد عاودت الشمر
بعد طول العهد ، من أجلها :

أحييت دمشق ربيع الشعر في خلدَي

لا غرو أن تبث الأشعار أشعار

أقصر أبها القلم فإني متهم بالمصيبة لدمشق ، والمغالة فيها .

وما حلتك بناتي الآن لتكتب عن دمشق ، ولكن عن عيد
أبي الملاء المعرى

بلغنا دمشق بعد الغروب بساعة ونزلنا عند فندق أمية .
وقد تعودت أن أنزل به وذكرته في بعض رحلاتي ، فلم نجد به
مكاناً فنزلنا بفندق دمشق — وكنا نزلنا به في بعض أسفارنا
مع طلاب الجامعة السورية ونزل رفقاء لنا في غيره . ففخر فريقنا
عليهم بأن تسموا بالدمشقيين .

ولم يستقر بنا القام في الفندق حتى جاء بعض إخواننا المشرفين
على مهرجان أبي الملاء ، فرأينا وجوهاً معروفة محبة إلينا .
ولا أذكر أسماء خوفاً من التطويل إن ذكرت كلها والعتاب
إن ذكرت بعضها . وأصبحنا في دمشق يوم الجمعة خامس شوال
سنة ١٣٦٣ وقد بقي للمهرجان ثلاثة أيام ، واجتمعنا هذا اليوم نحن
وجاعة من علماء الشام وأدبائها أعضاء الجمع العلمي العربي
في دار المجمع ، وهي المدرسة الأشرفية التي بناها الملك الأشرف
الأيوبي .

وكان العمل يسرع في محنها لتشارك في حفلات أبي الملاء ،
ولكن وافي المهرجان ولما يفرغ منها الترميم . وجلسنا مع
رئيس المجمع وبعض أعضائه حيناً . وقدم إلينا من مطبوعات
الجمع :

هذا قطار فلسطين ، يحمل ذكرى البلاد التي نحبها ،
ويجمع بنا مهوى أفئدتنا ، ومثار أشواقنا من بلدان وجماعات
طالما حننا إليها ، وسعدنا برؤيتها ، وردنا الفكر بين ماضيها
وحاضرها ، ووجهنا المزائم والآمال إلى مستقبلها . وإن حزن
في نفوسنا الألم لها فإنه الألم الذي يحفز الهمم ، ويغضي المزائم ،
ويمدد المديد ، ويجمع الكلمة ، ويؤلف القلوب ، ويؤكد الآمال
وهذه قناة السويس تسيل مع مائها العبر ، ويجري التاريخ ،
ويزخر الحاضر بما عبرها من الجنود والخطوب . وليس هنا مجال
الحديث عنها . ليس بها من جديد إلا جسر من حديد جمع عبرها
ليعبر القطار بركابه لا ينتقلون من قطار إلى آخر ، ولا يشق
عليهم العبور بأمتهتهم . ليلاً على ممدّيات القناة . ووقف القطار
على المنطرة الشرقية وقتته لجوازات السفر وما يتعدل بها .
ثم سار حين كاد ينتصف الليل فضرب في ييدائه ، وعبرناها
مضطجعين ، نجيش بنا هموم لا تنام ولا تنيم . ولاحت فلسطين
مع النجى ، والعين تنقرى ما يسر وما يسوء ، والفكر يضرب
في الماضي والحاضر ، ثم يرى مستقبلاً تكفله القلوب المجتمة
والمزائم الموحدة

وبلغ القطار حيفا ظهراً متأخراً عن مواعده ساعتين أو ثلاثاً .
ولم نلتبث بها إلا ريثما أعددتنا لاستئناف السفر . وهذه سيارتنا
تفور وتجد ، وتوقل الجبال وتنحدر على السفوح ، وتقطع
الأودية ، وتقف عند حدود لم يخلقها الله ، ولم يعرفها التاريخ ،
ولم يقرأها الحق ولم تقبلها الأوطان ولا أهل الأوطان ... فلنطو
المسافات ، ونقتحم العقبات ، مسرعين إلى دمشق الجيلة الجليلة
أدركنا الليل ونحن نفيذ السير على مقربة من دار الأمويين
فطمعت الأبصار ، وهفت القلوب ، وغشى الأنفس ما غشينا

كتاب التبرير بالتجارة لأبي عثمان الجاحظ . صححه وعلق عليه السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي
تكملة لإصلاح ما تفلط فيه العامة لأبي منصور الجواليقي .

صححه وعلق عليه الأستاذ عز الدين التنوخي
ديوان الوليد بن يزيد جمعه المستشرق الإيطالي جبريالي
وكتب مقدمته الأستاذ خليل مرادم بك

بحر العوام فيما أصاب فيه العوام لمحمد بن إبراهيم المعروف
بأبي الحنبلي نشره الأستاذ عز الدين التنوخي
الجزء الثامن من جامع التواريخ للتنوخي

وعدنا إلى دار المجمع مرة أخرى بعد أيام ، فزرت ضريح
الملك الأشرف ، وقد اتخذت حجرة الضريح خزانة كتب . ثم
خرجنا إلى البناء المقابل وهو المدرسة الظاهرية التي بناها الملك

الظاهر بيبرس ، وزرنا القبعة التي فيها قبره ،
ورأينا بدايع النقش والفسيفساء فيها . وقد
جمعت هي وحجرة متصلة بها خزانتان
لبعض كتب المكتبة الظاهرية . ورأينا
حول قبر الظاهر طائفة من الكتب
المكتوبة بأيدي علماء معروفين قرأنا سلسلة من خطوط كبار
علمائنا في عمود مطاولة . منها :

مسائل أحمد بن حنبل بخط الذهبي

كتاب بخط سبط ابن الجوزي

إنشاء النمر لابن حجة بخطه

كتاب بخط ابن تيمية

كتاب بخط ابن الفوطي

كتاب بخط ابن عبد الهادي

كتاب بخط ابن عساكر

كتاب بخط النزمي

كما رأينا كتباً أخرى قديمة نفيسة

وأضينا سحابة يوم السبت في الربوة دعانا إليها اثنان من
كرام تلامذتنا : الدكتور أسعد طالس والأستاذ شكري فيصل ،

فاجتمع هناك الأساتذة طه الراوي ممثل العراق في مهرجان المعري ،
والأساتذة أحمد أمين ، وعبد الحميد العبادي ، وأحمد الشايب ممثلو
جامعة فؤاد ، وجامعة فاروق ، والمجمع اللغوي

والربوة مكان جميل تزه بحار فيه الطرف والفكر بين ماء
يسقط من قمة الجبل حيث يجري نهر يزيد وماء يجري على السفح ،
وآخر في بطن الوادي وآخر في المدوة الأخرى وآخر فوقه .
هناك تجري شُعب سبع من هذا النهر المبارك العجيب نهر
بردي ، في القمم والسفوح وبطن الوادي وأصلها واحد

والماء هناك تنجلي به الحياة قوة وبهجة وزينة ولعباً ، يسقط
من السماء على السفح شلالاً ، ويجري على السفوح وفي الوادي
أنهاراً ، ويستمر تحت الشجر والعشب ، يرمض بينها أحياناً
ويختفي ، ويفجؤك منبجها من صخر أو ساعداً من نافورة ،

أو سائلاً من جدار ، وتسمع خريره
أحياناً ووسوسته حيث لا تراه . فما تزال
بين الفكر والنظر والسرور والتعجب
والمرح والوجوم . ولا تدعك هذه الرأى
الجميلة العجيبة تغفل من بهجتها إلى التفكير

صدر الرسالة الممتاز
يصدر عدد الرسالة السنوي الممتاز في
اليوم الثامن من يناير سنة ١٩٤٥ مديحاً
بأفلام أقطاب البيان في مصر والعالم العربي

فيما يحزنك من هموم العيش ، ولا يخليك الجمال والجلال
من نظر سادر ، وخيال حائر ، ووجوم سار ولذة يشوبها حزن .
ولا يمكنك هذا الجريان الذي هو أشبه بالزمان أن تحص مضى
الوقت . ولا ينتبهك طول الزمن من التهادي مع هذا الجريان .
وما أحسبني جلست على هذه الربوة تفدّرت الجلوس بالطول
والقصر ، والساعات والدقائق ، ولكنها أفكار متوالية ،
ونظرات متبادلة ، وبصوّر متتابعة ، لا يدري الإنسان بينها
أهوى فراغ أم في شغل ، وفي تفكير أم في غفلة ، وفي جد
أم في لهو ، حتى يدعوه صبحه إلى الكلام أو القيام فيتكم
مشغولاً بها ، ويقوم وملء عينيه التلفت إليها ، وفي جوانحه
الحنين إلى معاودتها ...

عبد الوهاب هزائم

(للكلام صلة)